

العبادة المفقودة

الشيخ محمد صالح المنجد

النبذة: إن الله سبحانه وتعالى قد ندبنا إلى التفكير والتذكر والتمعن، وذكر لنا في آياته أموراً كثيرة منها: الندب إلى التفكير في أحكامه، وكان بعض الصالحين يطيل الجلوس وحده، فكان يمر به مولاة فيقول: يا سيدي إنك تديم الجلوس وحدك، فلو جلست مع الناس كان آنس لك، فيقول: إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة، وأعظم التفكير هو في القرآن، وفي آيات الله المشورة.

عبادة التفكير.

الندب إلى التفكير.

نماذج من تفكير النبي والصالحين.

في أي شيء يتفكر.

التأمل في خلق الإنسان.

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.
أما بعد:

عبادة التفكير.

فإن كثيراً من المسلمين أيها الإخوة يفهمون عبادات الجوارح، وأعمال اللسان، لكنهم قليلاً ما يفهمون عبادات القلب، ويسهل عليهم استيعاب أعمال اللسان وعباداته، وكذلك الشعائر التعبدية التي تقوم بها الأعضاء، لكنهم يصعب عليهم فهم أعمال القلب، ثم إذا فهموا ذلك فقليل منهم من يعمل به، فلنأخذ جولة أيها الإخوة في عمل مهم من أعمال القلب، تتوقف عليه سعادة الإنسان وتحصل له به فتوح كثيرة، ويحصل على كنوز عظيمة هي والله أعظم من كنوز الذهب والفضة، وهذا العمل القلبي، وهذه العبادة العظيمة التي غفل عنها الكثيرون هي التفكير والتأمل، إعمال الخاطر في الشيء، النظر والتثبت فيه، تدقيق النظر في آيات الله المسطورة في كتابه والمنثورة في كونه، والمنثورة في خلقه بغرض الاتعاظ والتذكر، وأخذ العبرة ومعرفة الحكم، التدبر والتأمل والتفكير.

الندب إلى التفكير.

عباد الله:

إن الله سبحانه وتعالى قد ندبنا إلى التفكير والتذكر والتمعن، وذكر لنا في آياته أموراً كثيرة منها: الندب إلى التفكير في أحكامه، ولما حرم الخمر، وقال في الآية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} ختم الآية بقوله: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} (سورة

البقرة219) ، ثم أنزل تحريمها، وأمر وحث على التفكير في خلق السماوات والأرض، فقال عز وجل مادحاً عباده: **{وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** (سورة آل عمران191)، وقص علينا القصص مثل قصة الذي آتاه آياته فانسلك منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، قال في آخر القصة: **{فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}** (سورة الأعراف176)، ثم أعطانا أمثالا في كتابه لأمر متعددة وأمرنا بالتفكر فيها كمثل قوله تعالى: **{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** (سورة يونس24).

وأوجد في الأرض هذه النباتات من ماء المطر ودعانا للتفكر فيها وفيما أنبت فقال سبحانه: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}** (سورة النحل10)، ترعون أنعامكم **{يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ}** بهذا الأنعام **{الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** (سورة النحل11).

وخلق الدقائق من حشرات وغيرها وفاوت بينها في النفع، وجعل من النحل مجالا عظيما للانتفاع وأمرنا بالتفكر وحثنا على ذلك في خلقها فقال تعالى: **{وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}** (سورة النحل68)، مساكن النحل ثلاثة، **{ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** (سورة النحل69).

وندبنا الله تعالى للتفكر في أنفسنا التي خلقها فقال: **{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ}** (سورة الروم8)، وفي خلقنا قال سبحانه: **{وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ * وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}** (سورة الروم20-24).

وندبنا سبحانه للتفكر في نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم **{قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ}**، من الذي يتفكر؟ من الذي يقوم بهذه العلمية أيها الإخوة؟ من الذي يفعل ذلك، **{مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لِّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}** (سورة سبأ46).

وفي وفاتنا عبرة وموتنا الكبرى والصغرى فكرة، **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ}** تموت وهي نائمة **{وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى}** فتعود الروح إلى النائم إذا استيقظ من نومه **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** (سورة الزمر42).

ودعا الكفار للتفكر ليتوصلوا إلى وحدانيته ويرجعوا عن كفرهم، **{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}** (سورة الأنبياء30).

ولفت نظرنا إلى السماء التي فوقنا المرفوعة بغير أعمدة {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (سورة لقمان 10-11) {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} ألم تر، فانظر واعتبر {فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} (سورة الحج 63).

نماذج من تفكير النبي والصالحين.

التأمل والتفكير والتذكر، التأمل والتفكير والتدبر في آيات الله في المصحف، وفي آيات الله في الكون والواقع، من الذي يفعل ذلك؟ وقليل ما هم، فإذا نظر في المصحف فعيناه على الحروف، ولكن القلب غير عامل في المعاني، وإذا عاش في الدنيا فالحواس تتلذذ بما فيها، لكن القلب غافل عن آيات الله فيها.

وكان عليه الصلاة والسلام يتفكر ويتدبر ويأمر بذلك بل ويتوعد من لا يقوم به، عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة فقال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسكتت، تستحضر المشاهد التي رأتها من زوجها عليه الصلاة والسلام، فسكتت ثم قالت: لما كانت ليلة من الليالي قال: ((يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي)) قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبك وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: ((أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد أنزل علي الليلة آيات وبل لمن قرأها ولم يتفكر فيها {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (سورة آل عمران 190-191)، الآيات من سورة آل عمران. [رواه الطحاوي في مشكل الآثار 4618] ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما بدء به الوحي كيف كان حاله؟ ألم يكن في غار حراء يتحنث، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، أي في الوضوح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: ((اقرأ قال: ما أنا بقارئ))، القصة إلى أن قال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} (سورة العلق 1-3). [رواه البخاري 4].

فكان مبدأ النبوة حين كان عليه الصلاة والسلام يجلس في غار حراء يتحنث، ويتفكر، ويتدبر، ويتأمل صلى الله عليه وسلم.

وكذلك كان الصحابة، وكذلك كان الصالحون، حثوا وفعلوا، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة.

وكان بعض الصالحين يطيل الجلوس وحده، فكان يمر به مولاه فيقول: يا سيدي إنك تديم الجلوس وحدك، فلو جلست مع الناس كان آنس لك، فيقول: إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة. وبينما أبو شريح يمشي إذ جلس فتفتح بكسائه فجعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تأملت في ذهاب عمري، وقلة عملي، واقتراب أجلي.

وبكى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله مرة بين أصحابه فسئل عن ذلك، فقال: فكرت، الذين يشتكون من قسوة القلب ويقولون: ما هو الطريق لزيادة الإيمان، عندنا ضعف في الإيمان، ما هو السبيل لزيادة الإيمان، لإحياء القلب؟ السبيل من أعظم السبل هذا السبيل الذي لا يعمل به الكثيرون، الأكثرون أيها الإخوة صدقوني الأكثرون لا يقومون بهذه العبادة، التفكير والتدبر.

بكى يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك فقال: فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بما، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إنَّ فيها مواعظ لمن ادكر، أي: ذكر. وعن عبد الله بن عتبة قال: سألت أم الدرداء: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكير والاعتبار. وعن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقولون: إن ضياء الإيمان التفكير.

وعن الحسن رحمه الله قال: إن من أفضل العمل الورع والتفكير.

وقال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال محمد بن كعب: لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بـ"إذا زلزلت" والقارعة لا أزيد عليهما وأتردد فيهما وأفكر أحب إليَّ من أن أهد القرآن ليلتي هذه هذا أو أنثره نثراً. من كان منطقته ذكراً، وصمته فكراً، ونظره عبرة، هذا أحرى به أن يكون من أهل الجنة. وقال وهب: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عبد الله بن مبارك: مر رجل براهب عند مقبرة ومزبلة، فقال: يا راهب، إن عندك كثيرين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر، كثر الرجال وكثر الأموال، الأموال آخرها إلى المزبلة، وتبلى الثمار والثياب وآخرها إلى المزبلة، وكذلك الرجال آخرهم إلى المقبرة حتى يبعث الله العباد وتقوم الساعة. في المقبرة وفي المزبلة عبر.

قال الشيخ أبو سليمان: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله فيه نعمة ولي فيه عبرة. وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل.

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه: تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله، فالتفكر في الله ليس في ذاته، ولكن في معاني أسمائه وصفاته، وعظمته وجلاله سبحانه وتعالى.

وقال مغيث الأسود: زوروا القبور كل يوم تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، يوم القيامة، ما أتينا عليه ولا رأيناه بأعيننا، ولكن يمكن أن نشاهده بقلوبنا، بعملية تفكر وتأمل يمكن أن تشاهد القيامة بقلبك؛ لأن الله أعطاك من الآيات ما ترى به القيامة كأنها رأيت عين {إذا الشمس كورت}، {إذا السماء انشقت}.

وانظروا إلى المنصرف بالفريقين، حين ينصرف الناس من الموقف بعد الحساب والجزاء، حينما ينفذ اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامها.

قال الشافعي رحمه الله: استعينوا على الكلام بالصمت، فإذا صمت تبين لك مواضع الكلام والمصلحة وعلى الاستنباط بالفكر، هذه الكتب التي سطرها العلماء من استنباطهم والاجتهادات التي خرجوا بها، كيف خرجوا بها؟ من تأمل وتدبر لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وربما كان الواحد منهم يجلس من بعد العشاء إلى طلوع الفجر يتفكر في مسألة حتى ينقذح في ذهنه جوابها.

وعن الفضيل بن عياض قال: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

من أهمية هذه العملية أنها تبين لك الحسنات والسيئات التي فيك. تبين عيوبك؛ لأجل أن تصلحها.

عودوا عيونكم البكاء، وقلوبكم التفكير.

وكذلك قال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب، هكذا ينبغي أن يكون الحال.

فكرت في الدنيا وعالمها * فإذا جميع أمروها تفنى**

وبلوت أكثر أهلها فإذا * كل امرئ في شأنه يسعى**

وقد مررت على القبور فما * ميزت بين العبد والمولى**

أتراك تدري كم رأيت من * الأحياء ثم رأيتهم موتى**

تأمل في نبات الأرض وانظر * إلى آثار ما صنع المليك**

عيون من لجين شاخصات * بأحداق هي الذهب السبيك**

على قضب الزبرجد شهادات * بأن الله ليس له شريك**

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أهل التدبر وأن يحيي قلوبنا بالتفكير، وأن يجعلنا ممن يتأملون في آياته ومخلوقاته بما يصلح حالنا، اللهم أصلح قلوبنا وألف بيننا، واهدنا سبيل السلام، وأخرجنا من الظلمات إلى النور إنك أنت الحي الذي لا يموت.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله على آلائه، الشكر له على إحسانه ونعمه، وأشهد أن لا إله إلا الله تعظيماً له سبحانه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى سبيله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته والتابعين له ولأصحابه بإحسان إلى يوم الدين.

في أي شيء يتفكر .

عباد الله، يا عبد الله لو قلت في أي شيء أتأمل؟ وفي أي شيء أتفكر؟ فالتفكر كما قلنا: في القرآن وفي آيات الله المنثورة.

قال ابن القيم رحمه الله: أما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى: **{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}** (سورة ص 29)، فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بخدافيرهما، وعلى طرفاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلتهما، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشد بنيانه، وتوطد أركانه، وترية صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه وتحضره بين الأمم، وترية أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته، وأفعاله سبحانه، وما يحبه وما يبغضه وصراطه الموصل إليه وما لسالكه بعد الوصول، وقواطع الطريق وآفاتهما، وتعرفه النفس وصفاتهما، ومفسدات الأعمال ومصحاتهما، وتعرفه طريق أهل الجنة، وأهل النار، وأعمالهم، وأحوالهم، ومراتب أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه، وبالجملة أيضاً تعرفه ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصل إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة، والعذاب يوم القيامة، فهذه ستة أمور ضرورة للعبد معرفتها ومشاهدتها، الرب والطريق الموصل إليه والكرامة لمن اتبع ذلك الطريق، والشيطان وطريقه وما للمستجيب لدعوته من العذاب. فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها. فتشاهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل كل ما اختلف في ذلك العالم، فترية الحق حقاً والباطل باطلاً وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال، وتعطيه -التفكر والتأمل والتدبر- يعطيه فكرة، قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً، فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه والعلم بالله، وعلى الإيمان بالرسول وذكر براهين صدقهم وصحة نبوتهم، والإيمان بالملائكة وهم رسله في خلقه وأمره وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما يختص بالنوع الإنساني من أن يستقر في رحم أمه إلى أن يوافي ربه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأولياته من دار النعيم المطلق التي لا نكد فيها ولا ألم ولا تنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل وتفاصيل النهي والأمر والشرع، والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ، والعبر، والقصص، والأمثال.

هذا الذي اشتمل عليه القرآن، وهذا الذي يحتاج إلى تدبر، فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحته على التخفف للقاء اليوم الثقيل وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر الرب الجليل، وتسهل عليه الأمور الصعاب غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته وونى في سيره، تقدم الركب فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل، وكلما

خرج عليه كمين من كمان العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته، الحذر الحذر! فاعتصم بالله واستعن به وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

التأمل في خلق الإنسان.

التأمل يكون يا عباد الله أيضاً في عجائب صنع الله {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (سورة العنكبوت 19-20)، {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ} (سورة الروم 8)، في صنع نفسك فكر، وفي عجائب خلقك تفكر، انظر في جوارحك، في خلقك، في إحياء الله للأرض بعد موتها، في آثار الأمم السابقة، فكر وتدبر، لو فكرت في خلقك بماذا تخرج؟

من آياته الإنسان المخلوق من نطفة، فيك من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر معشاره، أو أقل {قَبِيلَ الْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ} (سورة عبس 17-22)، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (سورة المؤمنون 12-14)، فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة الماء المهين التي لو تركت ساعة فيضربها الهواء فسدت وأنتنت، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والتراتيب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى، وألقى بينهما الألفة والحب، ثم خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وكبر، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء علقه حمراء، ثم جعلها مضغاً، ثم قسم أجزاء النطفة وهي متساوية متشابهة إلى العظام، والأعصاب، والعروق، والأوتار، واللحم.

ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة، فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم، وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل، وقسم رؤوسها بالأصابع، وقسم الأصابع بالأنامل، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب، والمعدة، والكبد، والطحال، والرئة، والرحم، والمثانة، والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص، ومقدار مخصوص لعمل مخصوص؟ ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخرى، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص، وهيئة مخصوصة، لو فقدت طبقة منها، أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار، فلو ذهبنا إلى نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب لانقضت فيها الأعمار، ولم نبلغ، وانظر إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيصة رقيقة، ثم جعلها قواماً للبدن، وعماداً عليه، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة، فمنها الصغير والكبير، والطويل والمستدير، والجوف والمصمت، والعريض والدقيق، ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة جعل فيها المفاصل حتى تيسر الحركة، وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارج منه وفي الآخر العظم المقابل حفرة غائصة موافقة لشكل الزوائد، لتدخل فيها وتنطبق عليها، فصار العبد إذا أراد تحريك جزء من بدنه لم يتمتع عليه، ولولا المفاصل لتعذر ذلك.

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور، وبقية العظام منها الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع، وهي الأنياب والأضراس والشنايا، وجعل عظام الرقبة، ثم ركب الرقبة على الظهر، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خُرزة، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة يتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر، وعظام الكتف، وعظام اليدين، وعظام العانة، وعظام العجز، وعظام الفخذين، والساقين، وأصابع الرجلين، وليس المقصود ذكر عدد العظام فهذا شيء يعرفه الأطباء والمشرحون، إنما الغرض أن ينظر في مدبرها، ويتفكر في خالقها، كيف قدرها ودبرها؟ وخالف بين أشكالها وأقذارها؟ وخصصها بهذا العدد المخصوص الذي لو زادت عليه عظمة لاحتاج الإنسان إلى قلعها، ولو نقصت واحد لاحتاج إلى جبرها، فالطبيب ينظر لأجل العلاج، وأهل البصائر ينظرون ليستدلوا بذلك على جلال الخالق، وانظر كيف خلق الله الآلات لتحريك العظام وهي العضلات، فخلق في بدن الإنسان تسعاً وعشرين وخمسمائة عضلة مركبة من لحم، وعصب، ورباط، وأغشية، فأربع وعشرون عضلة لتحريك حدقة العين وأجفانها، لو نقصت واحدة فقط لاختل الأمر، وكل ذلك صنع الله من قطرة ماء مهين، فما ظنك بصنعه في السماوات، وكواكبها فلا تظن أن ذرة من ملكوت السماء تنفك عن حكمة وحكم.

هو أحكم خلقاً وأتقن صنعاً، بل إن خلق السماوات أعجب {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} (سورة النازعات 27-29)، {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} (سورة غافر 57)، ومع ذلك تتفكر في هذه العين كيف فتحها ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها وحماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع القذى عنها، ثم أظهر في مقدار عدسة منها ما تراه في السماوات والأرض، وخلق الأذنين وشقهما وأودعهما ماءً لحفظ السمع ودفع الهوام وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى الصماخ، وفتح المنخرين وأودع حاسة الشم فيه ليستدل باستنشاق الروائح على المطاعم والأغذية، وليستنشق الهواء الذي فيه غذاء القلب، وهذه الحنجرة التي هيأها لخروج الأصوات وخلق اللسان للحركات وتقطيع الصوت من مخارج مختلفة، كل حرف من مخرج، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة واللامسة والرخاوة والطول والقصر حتى اختلفت بسبب ذلك الأصوات فلا يكاد يتشابه صوتان، بل يظهر بين كل صوتين فرق مع كثرة عدد البشر، حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة.

وزين الرأس بالشعر، وزين الوجه باللحية والحاجين، وزين الحاجب بركة الشعر وتقوس الشكل، وزين العينين بالأهداب، والحيوانات وبقية البهائم وما أدراك ما فيها وما هي؟ منها من يطير، ومن يمشي، والماشي على رجلين، وعلى أربع، وعلى أربع وأربعين، وعلى ما يشاء سبحانه وتعالى مختلفة في المنافع والصور والأشكال والطبائع. الذي أحسن كل شيء خلقه، صنع الله الذي أتقن كل شيء.

كل هذا أيها الإخوة مجال للتدبر والتفكير والتأمل، فمن الذي يقوم بهذه العبادة؟ هي تحتاج إلى خلوة وتركيز، وتصل بعد ذلك إلى مغاليق يفتح الله بها عليك، تزيد إيمانك، وتثبتك على الدين، فالله الله في هذه العبادة أيها الإخوة، الله الله في التفكير والتدبر والتأمل.

نسأل الله أن يزيد إيماننا، وأن يثبت قلوبنا، وأن يشرح للحق صدورنا، اللهم اشف مرضانا، وارحم موتانا، واقض ديوننا، وألف ذات بيننا، وانصرنا على عدونا، أهلك اليهود والنصارى، أفشل خططهم، اللهم أوقع بينهم، اللهم إنا نسألك الدائرة عليهم، انصرنا عليهم وقنا شرهم وسائر الشرور، اللهم آمنا في أوطاننا، اللهم من أراد بلدنا هذا بسوء وسائر بلاد المسلمين فاردد كيده في نحره واجعل تدبيره تدميراً عليه.

إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون، فاذكروا الله العظيم الجليل يذكركم.